ثالثًا: إثبات النبوة وصحة القرآن الكريم

تنوَّعت أساليب الطاعنين في نبوة المصطفى محمد عليه الصلاة والسلام، واختلفت شبهاتهم وتعارضت في سبيل تكذيبها، وبذلوا جهودًا امتدت على طول أربعة عشر قرنًا ليثبتوا أن محمدًا عليه الصلاة والسلام لم يأت بالقرآن من عند الله تعالى، فلم يفلحوا.

وبعد أن اتفق العالِـمون بلسان العرب منهم على الاندهاش والتعجب من عظمة القرآن الكريم وبلاغته وفصاحته، اختلفوا في الجواب عن سؤال: من أين جاء النبي ﷺ بالقرآن؟ فتارة يقولون عن النبي: إنه ساحر تتنزل عليه الشياطين، فقال الله لهم: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]، وهم يعلمون أن النبي ﷺ لم يكن أفّاكًا ولا أثيمًا، إذ إن ألسنتهم لم تجف بعدُ من حديثهم عن صدق محمد وأمانته.

وتارة يقولون: إنما يعلمه بشر، ثم لم يجدوا في فصحاء العرب ولا بلغائهم المعروفين من يمكنهم أن ينسبوا القرآن إليه فنسبوه إلى حدّادٍ روميٍّ أعجمي في مكة، زعموا أنه معلم الرسول ﷺ، فقال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣﴾ [النحل: ١٠٣].

ثم جاء المتأخرون منهم ليقولوا: إنه سرق مضامين القرآن من الكتب المقدسة قبله؛ لأنهم وقفوا على بعض التشابهات بين قصص القرآن وقصص التوراة والإنجيل، ولكنهم غفلوا عن أمور متعددة تجعل شبهتهم هذه علامة على إفلاسهم وعجزهم أمام الحق وسطوته.

فالتشابه في القدر الصحيح من القصص إنما هو من العلامات المؤيدة لصدقه ﷺ وليس العكس، إذْ إن سبيل علمِ النبي ﷺ بتلك القصص الصحيحة إنما هو الوحي؛ لأنه أميَ لم يكن يستطيع قراءة الكتب المقدسة، ولأنها لم تكن مترجمة إلى اللغة العربية في ذلك الزمن أصلًا، إضافة إلى أن القساوسة كانوا يضنّون بنُسَخ الكتاب المقدس ويطوونها عن العامة ليكونوا وسطاء بينهم وبين الرب.

كما أنه قد فات أولئك المشككين أن القرآن الكريم قد خالف قصص الكتابَين في مواضع كثيرة ثبت في بعضها

مؤخرًا بوسائل الإثبات التاريخية صدق ما تفرد به القرآن الكريم؛ كعدم تسميته حكام مصر وقت يوسف ﷺ بالفراعنة، مع أن الكتاب المقدس سماهم بذلك، ثم ثبت تاريخيًّا أنها لم تكن مرحلة حكم الفراعنة.

وأضاف القرآن على قصص الكتاب المقدس أمورًا كثيرة أُفردت في كتاب، على أن القرآن فيه بيان واضح أنه مصدق لما بين يديه، فوجود التشابه في بعض المضامين هو مما أخبر به القرآن نفسه وليس مما اكتشفه خصومه.

وأما طعنهم على شخص النبي ﷺ فإن أوائلهم اتهموه بتهم متعارضة يظهر فيها الاضطراب والحنق والشعور بالهزيمة، فقالوا عنه: (ساحر وكاهن ومجنون وشاعر ومعلَّم) وغير ذلك، ثم جاء المتأخرون فنبشوا كتب السير والتاريخ والأدب؛ ليستخرجوا بمنظار الكراهية والحقد أي موقف يطعنون به على النبي الكريم؛ فأهانوا في سبيل تحقيق ذلك كل منهج علمي معتبر، حيث أعرضوا عن الأخبار التي توفرت فيها شروط الثبوت والصحة وتمسكوا بكل أثر منقطع الإسناد يرويه مجهول أو كذاب.

وهم جميعًا ـ متقدهم ومتأخرهم ـ يفرّون عن وسيلة التخطئة الواضحة التي أرشدهم الله إليها، فقال لهم: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟

شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

وتحداهم كذلك بقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقد نزلت هذه الآية في وقتٍ كانت قريش مستعدة فيه للتنازل عن كنوزها كلها لتغلب النبي ﷺ، ولقد كانت بضاعة البيان ـ حينذاك ـ رائجة أي رواج، وكان كثير من العرب خارج مكة يتربصون برسول الله الدوائر، ويحرصون على محاربته وهزيمته، كما فعلوا في غزوة الأحزاب؛ فما بالهم وقفوا جميعًا مشدوهين أمام هذا التحدي؟

ألم يكن اجتماعهم على أن يأتوا بمثل هذا القرآن أسهل عليهم من المعارك التي خاضوها مع النبي ﷺ؟!

ألم تكن أنفتهم ـ وهم وجوه العرب ـ تأبى عليهم أن يتركوا هذا التحدي الذي أعلنه خصمهم أمام النّاس إلا بخوض غماره ومحاولة الانتصار فيه؟ خاصة وأنه استفزّهم بإعلانه أنّهم لن يستطيعوا أن يكسبوا هذا التحدي، مع أنه أباح لهم أن يستقووا بمن شاؤوا، وأن يستعينوا بمن أرادوا.

كتب الدكتور محمد دراز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه النفيس «النبأ

العظيم» واصفًا التحدي الذي في سورة البقرة المختوم بقوله سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤] بقوله:

«فانظر أي إلهاب، وأي استفزاز: لقد أجهز عليهم بالحكم الباتِّ المؤبَّد في قوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾، ثم هددهم بالنار، ثم سوَّاهم بالأحجار، فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداءُ الألِدَّاء، وأباةُ الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم. ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سُلَّمًا يصعدون به إلى مزاحمته؛ بل وجدوا أنفسهم منه أمام طَوْد شامخ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا، حتى إذا استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الحتوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف، وتلك حيلة يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعًا بالقلم واللسان.

ومضى عصر القرآن والتحدي قائم ليجرِّبَ كل امرئ نفسه، وجاء العصر الذي بعده وفي البادية وأطرافها أقوامٌ لم تختلط أنسابهم، ولم تنحرف ألسنتهم، ولم تتغير سليقتهم، وفيهم من لو استطاعوا أن يأتوا هذا الدين من أساسه، ويثبتوا أنهم قادرون من أمر القرآن على ما عجز عنه أوائلهم؛ لفعلوا، ولكنهم ذلَّت أعناقهم له خاضعين، وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فُعِل بأشياعهم من قبل.

ثم مضت تلك القرون، وورث هذه اللغة عن أهلها الوارثون، غير أن هؤلاء الذين جاءوا من بعد كانوا أشد عجزًا، وأقل طمعًا في هذا المطلب العزيز فكانت شهادتهم على أنفسهم مضافة إلى شهادة التاريخ على أسلافهم، . . ، ولا يزال هذا دأب الناس والقرآن حتى يرث الله الأرض ومن عليها»[١]. اهـ.

وهذا التحدي القرآني باقٍ ما دامت السماوات والأرض، فمن كان في ريب من القرآن فدونه هذا الميدان فليُبد صفحته، وليُعلن عن نفسه، وليأتِ بسورة من مثله؛ فإن لم يفعل ولن يفعل فليتق النار فإنها حقّ.

الأخبار الغيبيّة:

من المعلوم أن الإنسان مهما بلغت ثقته بحدسه فإنه لا يستطيع أن يراهن على قدرات الآخرين التي تتقلب وتتبدل، ولا بدَّ له ـ لو أخبر بشيء مستقبلي لا دخل له بالحسابات والتوقعات العلمية ـ أن يجعل لنفسه طريق رجعة فيما لو لم يقع هذا الأمر الذي تنبأ به، وأمّا أن يأتي إنسان فيتحدث عن أخبار غيبية كثيرة، متنوعة في موضوعاتها، متباينة في أزمنة وقوعها، مختلفة في متعلقاتها، فمنها ما هو متعلق بتغيرات كونية، ومنها ما هو متعلق بأحداث سياسية، ومنها ما هو

(١) النبأ العظيم، محمد دراز، طبعة دار طيبة (ص١٠٥ ـ ١٠٦).

متعلق بأمور اجتماعية، ومنها ما هو متعلق بأشخاص بأعيانهم حول مصيرهم بعد عشرات السنين من وقت الخبر: بقوة وثقة وجزم وقطع، ثم يقع ما أخبر به على الهيئة التي أخبر بها، فإن ذلك كله ليس في نطاق قدرات البشر.

فإذا تَقرّر ذلك؛ فتأمّل معي هذه الأخبار الغيبيّة في القرآن:

١ ـ قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الروم: ١ ـ ٥].

هذه الآيات فيها إخبار عن أمور مستقبلية متعددة، وهي:

١ ـ نشوب حرب بين الفرس والروم.

٢ ـ ينتصر الروم فيها على الفرس.

٣ ـ الظرف الزمني لنشوب الحرب وانتصار الروم فيها هو ما بين ثلاث إلى تسع سنوات.

٤ ـ ويرى بعض العلماء أن فيها خبرًا رابعًا وهو انتصار المسلمين في نفس اليوم الذي يتوج فيه الروم على الفرس، وذلك من قول الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: ٤، ٥]، ولا شك أن في الآية إخبارًا بفرح

المؤمنين بالنصر، لكن الخلاف في مُتعلّق هذا النصر: هل هم المسلمون أم الروم.

تُرى ما الدافع لأن يُعرّض النبي ﷺ دعوته لخطر التكذيب ـ لو لم يكن واثقًا تمام الثقة ـ بحديثه الجازم عن نتيجة حرب لم تنشب بعدُ، بين أكبر جيوش العالم في ذلك الوقت، وزيادة على ذلك يُحدد الفترة الزمنية التي ستكون ظرفًا لوقوع هذه الحرب الكبرى.

ماذا لو لم تنشب هذه الحرب؟

وماذا لو نشبت ولكن كانت النتيجة فيها لصالح الفرس؟

بل وماذا لو انتصر الروم ولكن بعد المُـدة الزمنية المُـحدّدة أو قبلها؟

ألا يجعل ذلك للكفار حجة في تكذيبهم وإعراضهم؟

بلى، والله!

غير أنه لم تنصرم بِضْعُ السنوات المذكورة في الآية إلا وقد نشبت الحرب بين الفرس والرّوم، وانقضت بانتصار الروم على الوجه الذي جاء في القرآن؛ بل ويرى طائفة من المؤرخين أن ذلك كان بالتزامن مع انتصار المسلمين في معركة بدر؛ ليكون ذلك كله دليلًا على أن القرآن من عند الله عالم الغيب وحده.

٢ ـ الوعد الثاني: قال الله تعالى عن مشركي قريش:

﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥]، وهي آية مكّية نزلت قبل أيِّ قتال بينهم وبين المسلمين، وهي آية فيها خبر مُستقبلي لا يُمكن الجزم والقَطع به إلا ممن يعلم الغيب وحده؛ لأن الظرف الذي نزلت فيه هذه الآية كان ظرفًا صعبًا على المُسلمين في مكّة، إذْ كان يصدُق عليهم لقب (المُستضعفين) حيث كانوا في حالة اضطهاد ديني شديدة، فأيُّ جَمْع ذاك الذي سيُهزَم؟ وهل ستُولِّي هذه القوة العُظمى ـ قريشُ ـ أَدبارها أمام هؤلاء المُستضعفين؟ كيف يكون ذلك، وإذا كان الخبر من باب التفاؤل والرجاء فلماذا لا يأتي بصيغة تحتمل الوقوع أو تُغلّبه ولكن يبقى فيها تجويز لخلافه بدلًا من هذا الجزم.

وما هي إلا سنوات يسيرة حتى بدأ عِزّ الإسلام في المدينة، ثم جاء جمع المشركين إلى حتفه ببدر، وهُزموا، وولّوا الدبر، وصَدَق الله وعده ونصر جنده.

٣ ـ الوعد الثالث: قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: ٢٧].

هذه الآية نزلت في صُلح الحديبية، العام السادس من الهجرة، وفيها وعْدان مُستقبليّان:

١ ـ دخول المَسجد الحرام بأمان مع أداء العمرة.

٢ ـ أنه سيكون قبل هذا الدخول فتح قريب.

ثم يقع هذان الوعدان كما أخبر الله تعالى.

ففي العام السابع من الهجرة فُتحت خيبر، وكان فتْحُها خيرًا كبيرًا للمُسلمين، ثم وفي نفس العام دخل النبيّ ﷺ وأصحابه مكة، معتمرين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون؛ ليكون ذلك دليلًا آخر على أن هذا القرآن من عند الله سبحانه وتعالى.

٤ ـ **الوعد الرابع**: الإخبار الجازم بأعلى أساليب الجزم والتأكيد بانتصار النبي ﷺ في الدنيا قبل الآخرة، كما قال الله عز وجل: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج: ١٥]، وتأملوا معي جمال تفسيرها:

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله:

«﴿مَن كَانَ﴾ من الكفَرة الحَسَدَة له ﷺ، ﴿يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أن لن ينصر الله نبيِّه محمدًا ﷺ، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾؛ أي: بحبل إِلَى السَّمَاء؛ أي: سماء بيته، والمراد به: السقف؛ لأن العرب تسمي كل ما علاك سماء كما قال:

وقد يسمى سماء كل مرتفع … وإنما الفضل حيث الشمس والقمر

والمعنى: فليعقد رأس الحبل في خشبة السقف، ﴿ثُمَّ

لْيَقْطَعْ﴾؛ أي: ليختنق بالحبل، فيشده في عنقه، ويتدلى مع الحبل المعلق في السقف حتى يموت، وإنما أطلق القطع على الاختناق؛ لأن الاختناق يقطع النفس بسبب حبس مجاريه؛ ولذا قيل للبهر وهو تتابع النفس: قطع، فلينظر إذا اختنق: ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾؛ أي: هل يذهب فعله ذلك ما يغيظه من نصر الله نبيّه ﷺ في الدنيا والآخرة. والمعنى: لا يذهب ذلك الذي فعله ذلك الكافر الحاسد ما يغيظه ويغضبه من نصر الله لنبيِّه محمد ﷺ.

وحاصل هذا القول: أن الله يقول لحاسديه ﷺ، الذين يتربصون به الدوائر، ويظنون أنَّ ربه لن ينصره: موتوا بغيظكم، فهو ناصره لا محالة على رغم أنوفكم، وممن قال بهذا القول: مجاهد، وقتادة، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وغيرهم. كما نقله عنهم ابن كثير، وهو أظهرها عندي. ومما يشهد لهذا المعنى من القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١١٩]. انتهى ـ اختصار ـ هذا الكلام البديع من الإمام محمد بن الأمين الشنقيطي تغمده الله برحمته من كتابه «أضواء البيان»[١].

وأما الوعود الغيبية في السُّنَّة النبوية الصحيحة فهي كثيرة

(١) أضواء البيان، دار عالم الفوائد (٥/ ٥٢ ـ ٥٣).

جدًّا، يطول المقام بذكرها، وفيها من التفصيلات المتعلقة بالأشخاص والأحداث الشيء العجيب كالإخبار باستشهاد عمر وعثمان رضي الله عنهما، مع أنهما خليفتان يحكمان دولة عظيمة، والإخبار بأن عمارًا تقتله فئة باغية، والإخبار بأن الحسن يصلح بين فئتين من المسلمين، وكالإخبار بظهور الخوارج، وكالإخبار بأن فاطمة ابنته هي أول من يموت من أهله بعده، إلى غير ذلك من الأخبار الصحاح.

بين أصدق الصادقين وأكذب الكاذبين:

كتب ابن أبي العز الحنفي رحمه الله كلمةً جميلة حول النبوة، وقد ذكر معناها ـ قبله ـ ابن تيمية رحمه الله، وهي كلمة مطربة للعقل، مُنعِشة للذهن، ومنذ أنْ وقفتُ عليها وأنا أحبّ تكرارها في كل موطن تُذكَر فيه دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

قال رحمه الله: «النبوة إنما يدّعيها أصدق الصادقين، أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين؛ بل قرائن أحوالهما تُعرِب عنهما، وتُعَرِّف بهما، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة، فكيف بدعوى النبوة؟»[(١)]. اهـ.

(١) شرح الطحاوية، طبعة وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد (ص١٠٩)، وهو كلام سبقه إليه ابن تيمية فأعاد ابن أبي العز صياغته لا غير، ومن المعلوم أن كتابه «شرح الطحاوية» مستفاد من تقريرات ابن تيمة وابن القيم في كثير من مواضعه.

وإذا انطلقنا لنرى شواهد صدق محمد ﷺ فسنرى من كثرتها ما نعلم به السبب الذي لأجله قال عبد الله بن سلام حين رآه: «عرفتُ أنّ وجهه ليس بوجه كذاب»[1].

فقَبْل أنْ يَبْعَثه الله بالرسالة لبث عُمُرًا في قومه بمكة لا يرون منه إلا شواهد الصدق والأمانة، حتى استحق فيهم لقب (الصادق الأمين)، ولذلك؛ فإنَّه ﷺ أوّل ما خاطبهم بالرسالة اتّكأ على ما يعرفونه عنه من صِدق وبُعدٍ عن الكذب؛ فقال لهم: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ؛ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ**؟ قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا! قَالَ: **فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»[2].

وحين ذهب أبو سفيان إلى الشام قَبل إسلامه، وكان سيّد قريش وقائدها ضدّ رسول الله، استدعاه هرقل عظيم الروم ليعلَم منه خبر محمد ﷺ، فسأله عن عدد من الأمور التي أراد بها التوصّل إلى معرفة حقيقته، فكان فيما سأله: «هل كنتم تتهمونه بالكذب»؟ فأجابه أبو سفيان: لا. فقال له هرقل قولة حكيمة: «وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا؛ فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ»[3].

---

(١) سنن الترمذي (٢٤٨٥) وقال: هذا حديث صحيح.

(٢) صحيح البخاري (٤٩٧١)، صحيح مسلم (٢٠٨).

(٣) صحيح البخاري (٧).

وحين كسفتِ الشمْس في اليوم الذي مات فيه إبراهيم ابن النبيّ ﷺ قال النّاس: (كسفتِ الشّمسُ لموت إبراهيم) فماذا كان ردّ النبيّ محمد ﷺ على هذا الكلام؟

هل أيّدهم عليه؟ أو على الأقلّ سكت؟

بل قام فيهم خطيبًا مُصحِّحًا هذا الاعتقاد الخاطئ، معظّمًا ربّه وخالقه ومولاه قائلًا: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ**»[1].

ثم أرشدهم إلى الصَّلاة والاستغفار والصدقة؛ وذلك لأنه رسول من عند الله، ولو قيل مثل هذا الكلام في حق ملك من ملوك الدنيا لكان شأنه في التعامل مع هذا التعظيم لابنه آخر.

ومن شواهد صدقه ﷺ أنّه بلّغ القرآن كاملًا مع أنّ فيه آيات عتاب الله له؛ كقوله سبحانه وتعالى:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ [عبس: ١ ـ ٣].

وقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٣].

وقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ [التحريم: ١].

---

(١) صحيح البخاري (١٠٤٣)، صحيح مسلم (٩٠٢).

وقــولــه: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

أخبروني بالله عليكم لو لم يكن محمد رسول الله حقًّا أكان يُبلّغ هذه الآيات؟ ما الذي يضطره لقول هذا الكلام الذي يقرؤُه الناس إلى يوم القيامة إلا أنّه مأمور بتبليغه؟

وكثير من آيات القرآن الكريم فيها بيان واضح بأن النبيّ محمدًا عليه الصلاة والسلام عبدٌ لله، مُبلّغ رسالة ربّه، وأنه لا يضر ولا ينفع، ولا يعلم الغيب، وأنّه ليس له من الأمر شيء، فبلَّغَها كما أُمِر، وهذا من دلائل صدقه ونبوّته عليه الصلاة والسّلام.

فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الجن: ٢١ ـ ٢٢]، وقوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩].

ومن دلائل نبوة محمد ﷺ: حِفْظُ الله له ونصره إياه كما أخبره ووعده في القرآن، فعلى مَرّ ثلاثة وعشرين عامًا قضاها رسول الله في تبليغ الرسالة تعرّض فيها لكل أنواع الأذى لكن لم يستطع أحد من أعدائه قتله، على كثرة المحاولات من مختلف الأعداء؛ فالله سبحانه أنزل عليه:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] فعصمه، وأيّده بسكينته، وجُنده، حتى أتمّ الرسالة، وبلّغها، ونزلَت شهادة الله له من السماء: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣] ودخل النّاس في دين الله أفواجًا، وفُتِحَت مكة.

وإذا أردتَ أن تُدرك الحفظ الإلٰهي له فانظر إلى بيته الذي كان في المدينة، فلم يكن حصنًا كحصون اليهود، ولا قلعة كقلاع الروم، وإنما حُجُرات لا حارس عليها ولا بوّاب، إلا عينُ الله التي تحرسه.

ففي «صحيح البخاري» من طريق ثَابِت الْبُنَانِيّ، قَال: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ لِامْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِهِ: تَعْرِفِينَ فُلَانَةَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِهَا وَهِيَ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: «**اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي**». فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ خِلْوٌ مِنْ مُصِيبَتِي. قَالَ: فَجَاوَزَهَا وَمَضَى، فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ، فَقَالَ: مَا قَالَ لَكِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: مَا عَرَفْتُهُ، قَالَ: إِنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَجَاءَتْ إِلَى بَابِهِ **فَلَمْ تَجِدْ عَلَيْهِ بَوَّابًا**. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ مَا عَرَفْتُكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ الصَّبْرَ عِنْدَ أَوَّلِ صَدْمَةٍ**»[1]. ومع ذلك فقد كان الله سبحانه يُخلّصه من كل شر، وينجّيه من كل كيد.

---

(١) صحيح البخاري (٧١٥٤).

ومِن دلائل نبوّته ﷺ أنّه كان يثق بوعد الله له، فلا يهتزّ قلبُه في أحلك الظروف وأصعبها؛ متوكّلًا على خالقه ومولاه، ففي «صحيحي البخاري ومسلم» عن أَنَس بْن مَالِكٍ؛ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ حَدَّثَهُ، قَالَ: «نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُؤُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الْغَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ، أَبْصَرَنَا تَحتَ قَدَمَيْهِ. فَقَالَ: **يَا أَبَا بَكْر، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»[1].

وأخرج البخاريّ ومسلم عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَفَلَ مَعَهُ، فَأَدْرَكَتْهُمُ القَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ العِضَاهِ ـ أي: الشجر ـ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي العِضَاهِ، يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ فَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ. قَالَ جَابِرٌ: فَنِمْنَا نَوْمَةً، ثُمَّ إِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُونَا فَجِئْنَاهُ، فَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ جَالِسٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللهُ، فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ**» ثُمَّ لَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ[2].

---

(١) صحيح البخاري (٤٦٦٣)، صحيح مسلم (٢٣٨١).

(٢) صحيح البخاري (٤١٣٥)، صحيح مسلم (٨٤٣).

رابعًا: محاسن الإسلام

كثيرًا ما يتم الحديث عن محاسن الإسلام نظريًّا، غير أنَّ أكثر من يدرك محاسن الإسلام على حقيقتها، وأكثر من يشعر بحلاوة الإيمان ويتذوقها هو الملتزم بتعاليم الإسلام وآدابه في نفسه ومع أهله وجيرانه، وفي معاملاته، وفي خلوته، إذْ إنَّ الإسلام يغرس في نفس من يلتزم به قيمًا مطلقة متجاوزة للزمن، نابعة من ضمير الفرد ـ ولو غاب القانون الرادع ـ، وهي أسمى من النَّفعية المجردة، وأعلى من كونها صادرة عن تنظير فيلسوفٍ أو حَكيم أو مجموعة مُشرِّعين.

والالتزام بهذه القيم حال غياب الرقيب يُكسب المؤمن شعورًا تامًّا بالثقة والاطمئنان لجمال هذا الدين العظيم؛ لأنه يرى أثره عليه في منعه من الظلم والبغي والخيانة والفواحش، ومهما قيل بعد ذلك في الإسلام من تُهَم وتشكيكات فإنها لا تكون ذات قيمة وبالٍ عنده لأن عنده ما يعارضها.

مكانة القيم الأخلاقية والسلوكية في الإسلام:

إذا كان الإيمان أهم ما يعيش المسلم لأجل المحافظة عليه، ثم تجد في نصوص الشريعة ما ينفي الإيمان عن المرء إذا لم يلتزم ببعض القيم الأخلاقية كحُسن الجوار مثلًا، أو تجد فيها ما يُجلي حقيقة كون المرء مسلمًا بصفة سلامة المسلمين من لسانه ويده، فإن لك أن تتخيل محل القيم الأخلاقية والسلوكية وشأنها في الإسلام إذًا.

وقد جمع الدكتور محمد دراز الآيات القرآنية المؤسسة للقيم الأخلاقية في آخر كتابه «دستور الأخلاق في القرآن».

واخترتُ ـ هنا ـ طائفة يسيرة من الأحاديث النبوية (الصحيحة) التي تشير إلى ما تقدمه السُّنَّة النبوية في مجال أثر الإيمان «السلوكي» و«القيمي» وتُظهر شيئًا من محاسن الإسلام، وصدَّرْتُ كل حديث من هذه الطائفة المختارة بعنوان: (**تعلَّمنا من الحديث الصحيح**).

أما بعدُ:

١ ـ فقد تعلَّمنا من الحديث الصحيح: أنَّ «الـمُؤْمِن مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ»[(١)].

وهنا تنكسر الشعارات وتسقط اللافتات التي يعلقها

(١) رواه الترمذي (٢٦٢٧) وقال: حسن صحيح.

بعض الناس متظاهرًا بالإيمان، إذْ إنّ الإيمان عند حضور الذهب والفضة يُقاس بقدر التزام المرء بالأمانة.

٢ ـ وتعلَّمنا من الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ أقسم بالله ثلاثًا أن مؤذي جاره ليس مؤمنًا، وذلك بقوله: «**وَاللهِ لا يُؤْمِنُ، وَاللهُ لا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لا يُؤْمِنُ،** قَالُوا: مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»[١] ومعنى بَوَائِقَهُ؛ أي: شروره.

فهل يبقى شكّ ـ بعد ذلك ـ في أن الإيمان عمل وسلوك؟!

٣ ـ وتعلَّمنا من الحديث الصحيح: أن «مِنْ شَرِّ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللهِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ»[٢].

٤ ـ تعلَّمنا من الحديث الصحيح: أن التواضع رفعة، وأن العفو عز[٣].

٥ ـ وتعلَّمنا من الحديث الصحيح: أن ننظر إلى المرأة المؤمنة بعدل وموازنة، فإن كرهنا منها خُلقًا رضينًا منها الآخر[٤].

---

(١) صحيح البخاري (٦٠١٦).

(٢) صحيح البخاري (٦٠٥٨)، صحيح مسلم (٢٥٢٦).

(٣) صحيح مسلم (٢٥٨٨) بمعناه.

(٤) صحيح مسلم (١٤٦٩).

٦ ـ تعلَّمنا من الحديث الصحيح: الدفاع عن المال المكتسب من الحلال، شرف وكرامة ولو قُتِل المرء وهو يدافع عنه فإنه شهيد[١].

٧ ـ تعلَّمنا من الحديث الصحيح: أنه لا ينبغي للمؤمن أن يكون مغفلًا مخدوعًا، فإن الرسول ﷺ يقول: «**لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ**»[٢].

٨ ـ وتعلَّمنا من الحديث الصحيح: حجم المسؤولية التي تقع على عاتق الفرد تجاه ما يحصل من تجاوزات في المجتمع (كائنًا من كان هذا المتجاوز) فقد قال النبي ﷺ:

«**مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا؛ كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ، مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا**»[٣].

الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ: هو الذي يأمر بالخير وينهى عن الشر.

---

(١) صحيح البخاري (٢٤٨٠)، صحيح مسلم (١٤١).
(٢) صحيح البخاري (٦١٣٣)، صحيح مسلم (٢٩٩٨).
(٣) صحيح البخاري (٢٤٣٩).

اسْتَهَمُوا: يعني: اقترعوا؛ أي: عملوا بينهم قرعة ليتقسموا أعلى السفينة وأسفلها.

وهذا حديث يصور المجتمع بالسفينة الواحدة التي لا تبلغ هدفها إلا بالتعاون على المحافظة عليها، والتعاونِ على منع أصحاب الأهواء الشخصية من إغراقها ـ بغباء ـ لتحقيق مصالحهم التي تعميهم عن النظر في مصلحة المجتمع بأسره.

٩ ـ تعلَّمنا من الحديث الصحيح: الحرص على حسن المظهر فـ«**إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ**»[(١)].

وعلى حُسن رائحة الفم، فـ«**السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ**»[(٢)].

١٠ ـ تعلَّمنا من الحديث الصحيح: إحسان الظن فـ«**الظَّنُّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ**»[(٣)].

١١ ـ وتعلَّمنا: حمل أمور الناس على الظاهر وعدم الدخول في تحليل النوايا «**أَشَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟**»[(٤)].

١٢ ـ تعلَّمنا من الحديث الصحيح: أن للمرأة المسلمة من المكانة ما استحقت به أن يخصها النبي ﷺ بالتوصية يوم

---

(١) صحيح مسلم (٩١).

(٢) سنن النسائي (٥).

(٣) صحيح البخاري (٥١٤٣).

(٤) صحيح مسلم (٩٦).

اجتماع أكبر عدد من الناس في حياته ـ في الحج ـ بقوله: «**اِتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ**»(١).

١٣ ـ تعلَّمنا من الحديث الصحيح: وجوب مراعاة مشاعر من يشترك معنا في المجلس؛ «**فَلَا يَتَنَاجَى اِثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ**»(٢).

١٤ ـ وتعلَّمنا من الحديث الصحيح: بث روح الأمل والعمل الصالح أمام المخطئ ليعوض ما فاته، كما فعل النبي ﷺ مع من صدرت منه قُبلة لا تحل له؛ فخاطبه بقول الله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤](٣).

١٥ ـ تعلَّمنا من الحديث الصحيح: مكانة الوالدين، ومنزلة الأرحام، وحق الجار؛ بل والوفاء لأصدقاء الأب بعد موته كما في الحديث الصحيح: «**إِنَّ مِنْ أَبَرِّ البِرِّ صِلَةُ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ**»(٤).

١٦ ـ وتعلَّمنا من الحديث: أن الحياء من خير الصفات التي من الممكن أن تكون في الإنسان، ولكن في المقابل لا يَحْسُنُ أن تمنع هذه الصفةُ صاحبها من قول الحق والقيامِ والصدعِ به، فالنبي ﷺ كان «**أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ فِي**

---

(١) صحيح مسلم (١٢١٨).

(٢) صحيح البخاري (٦٢٩٠).

(٣) صحيح البخاري (٤٦٨٧).

(٤) صحيح مسلم (٢٥٥٢).

خِدْرِهَا»[١]، ومع ذلك فقد صعد على الصفا أمام قريش صادعًا بالحق قائلًا: «**إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»[٢]، ولم يترك ناديًا من نواديهم لم يَدْعُ فيه إلى سبيل ربه.

١٧ ـ تعلَّمنا من الحديث الصحيح: أن «**شَرَّ مَا فِي رَجُلٍ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ**»[٣]، فالشح الهالع يمنعه من إخراج ماله ويصيبه بالجزع إن أنفق شيئًا منه.

والهَلَعُ: الجزع، **والجُبْنُ الخَالِعُ**: هو الذي كأنه يخلع قلب صاحبه من ضعفه وخوره فيمنعه من القيام بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله.

ولن يفي هذا المقام المختصر بعُشر ما يمكن أن نتعلم (أفرادًا ومجتمعات) من الحديث النبوي، من قواعد في الفكر والمنهج والمفاهيم والأحكام والآداب والأخلاق تُظهر لنا عظمة هذا الدين وحسنه وجماله.

هذا، وقد كثرت المؤلفات والرسائل والبحوث في هذا الباب، حتى إن هناك من الدراسات المطولة ما أُفرِد في إظهار محاسن باب واحد من أبواب التشريع الإسلامي كباب

---

(١) صحيح البخاري (٣٥٦٢).

(٢) صحيح البخاري (٤٧٧٠).

(٣) سنن أبي داود (٢٥١١).

الحرب مثلًا، وقد ذكرتُ في أوائل كتابي: «**نظرات منهجية في محاسن الإسلام**» طائفة من الكتب والدراسات في باب محاسن الإسلام مقسمة بحسب طريقة تصنيفها وبحسب متعلّقها، فليراجع.

وقبل الانتقال عن موضوع محاسن الإسلام إلى ما يليه، رغبت أن أقتبس مواضع يسيرة من كتاب: «**نظرات منهجية في محاسن الإسلام**»، وهي اقتباسات متعلقة بجوانب منهجية لم أشر إليها في الكلام السابق؛ لتكون مكملة له، وشافعة:

■ «لقد تميَّزَ الإسلام على سائر الديانات الموجودة اليوم بوضوح العقيدة في (الإلٰه) من جهة الكمالات المتعلقة به، ولذا فإن العقل لا يجد تكلفًا في قبول الاعتقاد الإسلامي في الله سبحانه، بخلاف الخرافات والأساطير الموجودة في تصوّرات كثيرٍ من البشر تُجاه الإلٰه، وهذه القضية من أظهر القضايا في دين الإسلام، والاستدلال عليها لا يحتاج إلى كبير عناء، فالقرآن من أوله إلى آخره تمجيدٌ وتعظيمٌ وتنزيهٌ لله ﷻ، والسورة التي أخبر النبيّ ﷺ أنها أعظمُ سورةٍ في القرآن هي السورة التي تبدأ بحمد الله والاعتراف بأنه رب العالمين، وأنه مالك يوم الدين، وتبيّن العلاقة بين المخلوق وبين الخالق بالتعظيم الذي ينبغي للخالق، بأنه لا يُعبد إلا هو، ولا يُستعان إلا به، فهذه أعظم سورة.

وكذلك أعظم آية في القرآن، كلُّها متعلقةٌ بالإلٰه من أولها إلى آخرها، وهي آية الكرسي.

ولا يوجد عندَ أمّةٍ من الأمم المتديّنة تعظيمٌ للإلٰه بمثل ما في آية الكرسي.

ثم إنه قد صحَّ عن النبي ﷺ أن في القرآن سورة تعدل ثلث القرآن، وهي سورة الإخلاص، وإذا تأمّلتَ فيها وجدت أن جميع السورة إنما هي تعظيمٌ وتنزيهٌ لله ﷻ.

بينما إذا نظرتَ فيما جاء عن الخالق في سائر الأديان فلن تحتاج إلى كبير جهد لتدرك الفارق بين الإسلام وبين غيره؛ بل إن المقارنةَ بين الإسلام وغيره في هذا الباب ظالمةٌ.

ومن جمال وكمال وعظمة التصور الإسلامي عن الله ﷻ أنه لا يقتصر على مجرد الوصف الكامل؛ بل هذا الوصف يقتضي التعبدَ والخضوعَ والذلَّ لله ﷻ. وفي ذلك يقول فريد الأنصاري رحمه الله: «فالربوبية إذن ـ لمن عرفها حقًّا وصدقًا ـ جالبة للمحبة؛ لأنه إذا كانت الإلٰهية ـ وهي عقيدة المحبة وما تفرع عنها خوفًا ورجاءً كما أصّلنا ـ مبنيةً على الربوبية فمعنى ذلك: أنّ الربوبيةَ ذاتُ خواصٍّ تجلب إليها القلوبَ فتألَهُهَا!»(١).

(١) جمالية الدين، معارج القلب إلى حياة الروح، لفريد الأنصاري (٤٥).

إذن فهذا الاعتقادُ الإسلاميُّ العظيمُ في الله ﷻ ـ على وضوحه وجلاله وجماله ـ فإنه يزداد جمالًا على ذلك باقتضائه التعبدَ لهذا الإلٰه ﷻ.

ومن المعلوم عند علماء الاعتقاد الإسلامي أنّ من أهم الأدلة القرآنية في الرد على المشركين الاستدلالُ بتوحيد الربوبية وبصفات الله ﷻ وكماله على توحيد الإلٰهية واستحقاق الله له»[1].

■ «إن من أهم ما يُبرِز محاسن الإسلام ويرسّخها في النفسِ: النظرُ إلى أحوالِ الجاهلية ـ سواء ما كان منها متقدمًا على الإسلام أو متأخرًا عن بدايته ـ ورؤية الجانب الإصلاحيِّ العظيمِ الذي جاء به الرسول ﷺ في مقابل ما كان منتشرًا ومتجذرًا في نفوس العرب من الناحية الاعتقادية والسلوكية ومن ناحية العادات والأعراف والتقاليد.

إننا لا نتحدث عن نتائج إصلاح عادي يقارب نتائج الحركات الإصلاحية القديمة والحديثة؛ بل نتحدث عن حالة استثنائية فريدة في التاريخ، عبّر عنها أحد أشهر المؤرخين في التاريخ الحديث (ول ديورانت) مع كونه لا يؤمن برسالة النبي ﷺ؛ بل وقد أثار شيئًا من الطعونات والتشكيكات فيه، غير أن سطوة الحقيقة عليه أبت إلا أن تُخرج منه هذا

(١) من كتابي: نظرات منهجية في محاسن الإسلام.

الكلام؛ وذلك في كتابه «**قصة الحضارة**»، حيث قال: «وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثرٍ في الناس، قلنا: إنّ محمدًا كان أعظمَ عظماءِ التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعبٍ ألقت به في دياجيرِ الهمجيةِ حرارةُ الجوِّ وجدبُ الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرضِ نجاحًا لم يدانيه فيه أيُّ مصلح آخرَ في التاريخ كلِّه، وقلّ أن نجدَ إنسانًا غيرَه حقّق كلَّ ما كان يحلم به»[(١)][(٢)].

(١) قصة الحضارة (١٣/ ٤٧).

(٢) من كتابي: نظرات منهجية في محاسن الإسلام.